المنار

١٣١٥

يقول الملك من يشاء ويؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل بيده الخير إنك على كل شيء قدير

يدبر عباده في ملكوت السموات والأرض فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر ٣٠ جمادى الأولى ١٣٣٠ هـ ق ـ ٢٧ الربيع الثاني ١٣٩١ ه ش ١٧ مايو ١٩١٢ م)

الخطبة الرئيسية

(في ندوة العلماء بلكنهو « الهند »)

« لصاحب المنار »

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الذي أرسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين . وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في هديهم إلى يوم الدين

ثم إني بعد حمد الله وشكره عوداً على بدء ، أشكر هذه الجمعية المباركة ـ جمعية ندوة العلماء ـ دعوتها إياي من مصر إلى الهند لحضور الاحتفال السنوي العام الذي

تعيمه في هذا العام . وأن جعلت دعوتها هذه مبنية على حسن ظنها بي ورجاء الفائدة بحضوري ومشاركتي لاعضائها العلماء الاعلام .

أشكر هذه الجمعية بالقول كما شكرتها بالفعل بأن أجبت دعوتها وليت طلبها في وقت أنا أشغل فيه ما كنت منذ وجدت . فقد كنت مشتغلا بتأسيس دار الدعوة والارشاد والتعرض لكل ما يحتاج اليه التأسيس المعنوي والمعنوي من حاجات البناء والاثاث واللاعون وأدوات التعليم والكتب واختيار المعلمين والمستخدمين وغير ذلك .

جاء تلغراف الدعوة وأنا على ذلك ، بل الامر أعظم من ذلك ، فوافقت ما كانت تصبو اليه نفسي ويحن اليه قلبي من زيارة الديار الهندية واختبار حال التربية والتعليم الاسلامي فيها . ولكن تعارض النافع والمقتضي بل كان هنالك موانع عديدة كل واحد منها كان كافياً للترجيح فكيف بها قد اجتمعت ؟ .

مضت سنة الله في سجايا البشر وطباعهم في العمل الذي يندفعون اليه بمقتضى فطرتهم أن يرجحوا النافع على المقتضي اذا كان كل منهما نظريا مناطه الرأي والفكر ، أو وجدانياً مناطه الشعور والهوى النفسي ، وأما اذا كان أحدهما وجدانياً أو يعده الوجدان والآخر ليس كذلك فان الترجيح يكون في الغالب للوجداني ، أو ما يعده ويؤيده الشعور الوجداني .

لهذا كانت تغالبني نفسي على إجابة الدعوة وترك ادارة مدرسة دار الدعوة والارشاد بعد فتحها وما علي من الدروس فيها ، وترك ادارة المنار وأعماله واقتحام غارب الاغتراب ، والنأي عن التلاميذ والمريدين والاصحاب ، وان لم أكن من الذين يرضون لانفسهم ترجيح مقتضى الشعور والميل على مقتضى المصلحة والرأي ، وان كان من الشعور والهوى ما هو عين الحق والهدى بدليل حديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » فتحت مدرسة دار الدعوة والارشاد وهي منتهى رجائي في خدمة الاسلام ، وغاية سعيي في اصلاح التربية والتعليم ، وأقر الله عيني برؤيتها والبدء بالقاء الدروس فيها ، ورأيتني مدعواً الى مفارقتها في أول العهد بوصالها والتمكن من التمتع بجمالها ، فتجدد لي شعور ووجدان لم يكن عندي في أيام السعي والنصب ، وكنت كالعاشق الذي دعي الى ترك معشوقه بعد طول العناء في طلبه

هكذا كانت تتنازعني الآراء المتعارضة وتتجاذبني أرواح الشعور المتناوحة . حتى عرضت ذلك على اخواني أعضاء ادارة جماعة الدعوة والارشاد ، بعد أن استشرت غيرهم من الاصدقاء ذوي الرشاد ، فأجمعت كلمة الجماعة على أن أجيب الدعوة ، وأن

أكون فيها سفيراً عنهم ووافداً من قبلهم ، أحيي بلسانهم ندوة العلماء ، وجميع من ألقاه من مسلمي هذه الديار الفضلاء ، وأعرض عليهم رأيي ورأي الجماعة فيما ينبغي لنا وما يجب علينا من خدمة الاسلام وترقية شأن المسلمين ، من طريق التربية والتعليم .

فأنا أيها السادة الاخوان ! - أخاطبكم بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جماعة من اخوانكم المسلمين في مصر الذين يشاركونكم في مثل شعوركم الشريف ، وسعيكم المجيد . فكان اجماع الاخوان هو المرجح الاخير الذي عليه التعويل وعليه أنا نابذ بين أيديكم أليكم وأحيكم .

أيها الاخوة الكرام !

اذا كنت قد أفضت شيئا من وقتكم بذكر كلمات من خبر رحلتي اليكم فان لي نية صالحة تتعلق بغرضين : أحدهما أن يكون شفيعاً لي بين يدي مذاكرتكم في أمر التربية والتعليم بالاصغاء الى ما أقول فانه اذا لم يكن قول الخبير المدقق فهو قول المحب المخلص . ومن كان هذا شأنه فهو جدير بأن يتلقى ما يصيب فيه بالقبول وما يخطئ فيه بالعفو والسماح ، على انني مستقل بهذه المسألة منذ خمس عشرة سنة بحثا ومذاكرة ومناظرة وكتابة وخطابة وتعليما . وان المقيم في مصر ليسهل عليه أن يعرف من أحوال المسلمين في تربيتهم وتعليمهم وسائر شؤونهم ما لا يسهل على المقيم في قطر آخر ، ولهذا قال بعض عقلاء الافرنج : ان مصر هي الدماغ المفكر للعالم الاسلامي

والغرض الثاني من تلك الكلمات أن أبين لكم أنني لست أنا الذي أهتم وحدي بزيارة بلادكم واختبار أحوالكم ، بل يشاركني في ذلك جمهور المفكرين من اخواننا المصريين وكذا غير المصريين من فضلاء المسلمين ، وكل ما يجب المرء وهتم به يدركه ويناله .

أيها الاخوة الكرام !

ان للاسلام عليكم وعلى سائر مسلمي بلادكم من حق احياء علومه وآدابه وأعماله مثلما له على مسلمي مصر من ذلك ، فاني علمت بالاختبار الطويل انه لا يوجد بلاد اسلامية فيها من حرية التربية والتعليم ويقظة الفكر وسعة الثروة مثل ما في الهند ومصر ، ويجب علينا شكر هذه النعمة باستعمالها والانتفاع بها

ان اخواننا مسلمي التتار في روسية أيقاظ منتبهون وعندهم نهضة في التعليم تذكر فتشكر ، ولكن حكومتهم تضيق عليهم السبل ، وتطارد الاساتذة المعلمين منهم ، وتعاقبهم على جريمة التعليم (؟!) بالنفي تارة وبالسجن تارة أخرى : كان الشيخ العالم الجليل الصالح بالجان منذ ثلاث سنين عندنا في مصر منفيا من وطنه ، مبعدا عن بلده ،

لانه يعلم المسلمين ويفيد أفكارهم في مدرسته الشهيرة في مدينة قزان، وقد تقدم أخوه ومساعده في التعليم معه أيضا

وان الاخوين النجيبين عبدالله بوبي وعبيد الله بوبي قد أنشآ مدرسة في قرية «بوبي» واجتهدا في أمرها ما استطاعا فألقت عليهما الحكومة الروسية القبض في شتاء العام الماضي وألقتهما في غياهب السجن بعد ما كنهما في محكمة الجنايات بقزان، وقد مضى العام بطوله ولم يطلبا للمحاكمة ولكن رأينا في احدى الجرائد الاسلامية الروسية انه ينتظر ان يحاكما في هذا الربيع والله أعلم، وقد نشرت جريدة «نوفي فريميه» الروسية التي تصدر في بطرسبرج مقالات حثت فيها الحكومة على منع التتار من السعي لتعليم مسلمي تركستان (*) ونبهتها الى خطر سياستهم فيها لئلا ينبهوا الترك الغافلين (١)

هذه اشارة الى حال أقرب المسلمين الذين تحت سلطة دولة أوربية اليكم، وان حال مسلمي المغرب لشر من حالهم فان مسلمي التتار يجدون في أمر التربية والتعليم، على مراقبة حكومتهم لهم وضغطها عليهم، وهم دائما يرسلون الوفود الى مصر وسورية والحجاز ليتعلموا ويتقنوا اللغة العربية ليكونوا معلمين اذا رجعوا الى بلادهم، ومنهم من يذهبون الى الاستانة لاجل تعلم الفنون العصرية، والمراقبة على هؤلاء شديدة. أما مسلمو تونس والجزائر فلا يستطيعون أن يعملوا مثل عملهم، فان مراقبة فرنسة لهم أشد، واحاطتها بهم أقوى وأعم، وقد اعترف بعض المنصفين من الفرنسيين بهذا الضغط، وصرح بعضهم بأنهم يعتقدون انهم سينسخون الاسلام واللغة العربية من العرب، ولكن أناسا آخرين يرون ان حسن معاملة المسلمين أنفع لهم ويعون في اقناع حكومتهم بذلك ولما ينجحوا في سعيهم. ولا أحب أن أزيدكم أعلم في ذلك

وأما مسلمو جاوه والملايو فحالهم أسوأ من جميع أحوال المسلمين. وقد أحاطتهم هولندة بسور من الجهل لا يتسلقه أحد. وان شئتم أن تعرفوا شيئاً مفصلا عنهم فاني آتيكم برسالة مطبوعة باللغة الانكليزية في ذلك فانقلوها الى لغتكم وانشروها في جرائدكم واعتبروا بها واشكروا نعمة الله عليكم وجدوا واجتهدوا في تعميم التربية والتعليم بينكم أيها الاخوة الكرام!

ان الحكومة الانكليزية أوسع الحكومات الاستعمارية حرية ويمكن لمن يكونون في ظل حكمها ان يرقوا أنفسهم اذا سلكوا في ذلك طريق العقل والحكمة

(*) قد صدر قانون (لائحة) المدارس في تركستان هو منشور في هذا الجزء.
(١) راجع الجزء الماضي ص ٢٥٦

ولا يمكن ذلك لكل من كان في ظل غيرها من الحكومات الاستعمارية ، ورب ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، ومن العقل والحكمة ان يعتصم المستقلون بالاصلاح العلمي والتهذيبي عن السياسة سرا وجهرا ، فان السياسة ما دخلت في عمل الا أفسدته كما قال الاستاذ الامام

لو كان الذين تضطهدهم بعض الدول وتعاقبهم على التعليم يزجون علمهم بالسياسة لكنت أول من يعذرها . فانا علمنا من قواعد علم الاجتماع المستنبطة من التاريخ ان الدول لا تغفر أن تعارض أو تنازع في ملكها وسلطانها وقد تغفر ما دون ذلك من الذنوب اذا وقع من يخلصون لسلطانها أو تأمنهم عليه فذلك في دين السياسة كالشرك في الاسلام قال تعالى « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

قد عهد من بعض الدول المرتقية العدل والرحمة في القضاء والادارة ولا توجد دولة في الارض تتصم بالرحمة أو العدل في السياسة . وأعني من السياسة حفظ الملك والسيادة ، وما يتعلق بالتعدي على السلطة ، ولكن الدولة العاقلة تزن الشدة في ذلك والقسوة بميزان العقل والحكمة ، والسياسة قد يكون لها عقل ولكن لا يكون لها قلب

كانت دول الاسلام في العصر الاول أعدل وأرحم ما عرف التاريخ من الدول حتى في أثناء الفتوحات والحكومة العسكرية التي كانت ولا تزال تظهر القسوة الشديدة وقد اعترف بذلك المنصفون من مؤرخي الافرنج وعلماء التاريخ فيهم ، قال غوستاف لوبون الفيلسوف المؤرخ الفرنسي « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » فاذا كانت حكومة الخلفاء الراشدين لا يقاس عليها لانها خلافة نبوة فهاتان الدولتان الاموية والعباسية كانتا أعدل دول الارض في القديم والحديث في القضاء وأوسعهن رحمة وجودا وفضلا على الرعية في الجملة ولكنهما استعملتا الشدة والقسوة في التنكيل بمن نازعهما السلطة حتى انهم كانوا يذبحون آل الرسول عليه الصلاة والسلام ويقتلونهم اينما ثقفوا — من ظنوا أو توهموا انه يسعى منهم الى الملك أو يسعى له فيه ، بل شهد التاريخ وروى لنا أن الأب كان يقتل ابنه والابن يقتل أباه لاجل الملك

أيها الاخوة الفضلاء !

اذا كانت حكومتكم تسمح لكم أن تربوا أولادكم على عقائد دينكم وآدابه وفضائله وعباداته وأن تعلموهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم كما تشاءون لا تشترط على جمعياتكم العلمية والدينية ولا على نظام مدارسكم الا احترام سلطانها ، وعدم معارضتها

في سيادتها ، فقد أعذرت اليكم ، واذا قصرتم ولم تبذلوا كل طاقتكم في تعميم التربية والتعليم فانما إثمكم على أنفسكم ، ولا لوم لكم الا عليها ، فكيف اذا كانت حكومتكم هي التي تحثكم حتى على التعليم الاهلي ، وتنشطكم حتى على التعليم الديني ، وقد فاجأني العجب وأخذ من نفسي كل مأخذ عند ما علمت ان الحكومة الانكليزية ترغب مسلمي الهند في تعلم اللغة العربية وتساعدهم على تعلمها ، وأنها خصصت مبالغ من المال لاجل تعليمها في بعض مدارسها ، ومبالغ لاعانة المدارس الاهلية على تعليمها ، كمدرسة العلوم الاسلامية في عليكره وغيرها ، كما اعطت المسلمين أراضي غالية الاثمان في عدة مدن لبناء مدارسهم الاهلية فيها وهذه ندوة العلماء جمعية دينية محضة ومن مقاصدها نشر الاسلام ، وقد أعطتها الحكومة أرضا غالية الثمن لبناء مدرستها فيها وخصصت لها مبلغ ستة آلاف روبية اعانة سنوية

لا أطيل في تفصيل ما سمعته منكم أي من أهل بلادكم من أخبار هذه المساعدات فانكم أعرف بها مني وانما أشير اليه لاذكركم بأن الحجة عليكم تكون أنهض اذا أنتم قصرتم في التعليم وان الحكومات لا تنهض بالامم اذا لم تنهض الامم بأنفسها ، فعليكم ان تعتمدوا بعد الاستعانة بحول الله وقوته على جدكم واجتهادكم وسعيكم (وأن ليس للانسان الا ما سعى) وقد أعجبني جواب قاله لورد كرومر لبعض وجهاء المصريين اذ قال له ذلك الوجيه : انك ايها اللورد قد أصلحت المالية المصرية وجعلت خدمتك في مصر خالصة للحكومة ولم تعمل للمسلمين شيأ يرقيهم ، فقال له اللورد « ان الذي لا يرقي نفسه لا يرقيه غيره ، فيجب أن تعملوا لانفسكم وانا سأتم وطلبتم مني المساعدة فانني أساعدكم »

حاجتنا الى اصلاح التربية والتعليم

أن حاجتنا معشر المسلمين الى اصلاح التربية والتعليم قد صار من البديهيات التي لا يماري فيها الا الراسخون في الغباوة أو المسرفون في المكابرة ، وقد اعترف به كبار علماء الازهر وهم أشهر علماء الاسلام وعلماء الاستانة ونفوذهم في المملكة العثمانية لا يعلوه نفوذ ، وقد عقدت في هذين السنتين لجان من الفريقين ومن رجال الحكومة للنظر في ذلك ووضعوا للاصلاح قوانين وبرامج جديدة ، واختاروا له كتبا لم تكن تقرأ فقرروها ورغبوا عن كتب كانت تقرأ فتركوها ، ورأوا الحاجة شديدة الى علوم وفنون جديدة فزادوها وكذلك فعلتم أنتم أيضا في ندوة العلماء

ومكانكم من علماء المسلمين مكانكم ، وفضلكم فيه فضلكم ، وكذلك علماء تونس قد بحثوا في هذا الامر منذ سنتين واحدثوا عدة تغيرات في نظام التعليم ، وبقي هنا وهنالك في كل مكان من يرون أن ماجروا عليه واعتادوه هو غاية الكمال ، التي لا تقبل الزيادة بحال من الاحوال ، ولكن أرقى الباحثين والمصلحين للنظام الماضي في تلك الاقطار يرون ان ما وضع لاصلاح التعليم في الازهر والاستانة ليس هو غاية الكمال المطلوب ، وانما هو ضرب من التدريج في الاصلاح

ليس هذا ببدع في أحوال البشر فقد عرف من سنة الله تعالى فيهم أنهم لا يكادون يتفقون على شيء وان الجمهور الاعظم منهم لا يتفقون على تغيير ما في أحوالهم الاجتماعية الا في الزمن الطويل ، وان التغيير الفجائي السريع لا يخلو من خطر أو ضرر ، فليتمسك من شاء بالنظام المألوف فلا يضر طلاب الاصلاح شيئاً اذا كانوا يأخذونه بقوة ، ويدعون اليه على بصيرة ، وكان ذلك ناشئاً عن حياة جديدة نفخ روحها في الامة ، فان العاقبة لهم « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

ليس موقفنا هذا موقف مناظرة ، ولا مقامنا مقام الادلاء بالحجة ، وانما هو موقف تذكير للناسي ، وحفز لهمة الآسي ، وحسبنا من الذكرى فيه قول الله عز وجل « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وانا نحن المسلمين نعرف من تاريخنا ومن آثار سلفنا انا كنا نحن الأئمة الوارثين ، والسادة المتبوعين ، والحكام العادلين ، والعلماء العاملين ، والصلحاء المخلصين ، والاغنياء المنفقين ، والصناع الماهرين ، والزراع المعمرين ، والتجار البارعين ، بل كنا فوق جميع الامم في كل علم وعمل ، حتى كاد العدد القليل منا لا يطؤن أرض قوم الا ويجذبونهم بأزمة قلوبهم وعقولهم الى اتباعهم في دينهم ولغتهم وآدابهم ، فهل نحن اليوم كذلك ؟ ألسنا قد تدلينا بل هبطنا من سماء تلك العزة والرفعة والسلطة وصرنا وراء الامم ، بعد أن كنا أئمة جميع الامم ؟ ألا تفكر في ماضينا وحاضرنا ، ونعتبر بسبق كل أحد حتى الوثنيين لنا ؟ أولئك الذين كانوا قبل اشراق نور الاسلام على هذه الديار شراً مما ترون عليه عامتهم حتى الآن ـ عراة الابدان ، يعبدون الجماد والحيوان ، والانهار والنيران ، ويأكلون على ورق الاشجار ، فهل غير الله ما بنا الا بعد أن غيرنا ما بأنفسنا ؟ كلا انها سنته في خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلا »

نعم ان الله لم يغير ما بنا من نعمة ورفاهة وعزة وسيادة الا بعد أن غيرنا ما بأنفسنا من استقلال الرأي ، وصحة الحكم ، وحقائق العلم ، ومكارم الاخلاق ، وعقائل الصفات ، والاعتصام بحبل الله ، والتآخي في الايمان ، وعمل الصالحات ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وترجيح المصالح العامة على الاهواء الخاصة ، وغير ذلك مما عده القرآن المجيد من صفات المؤمنين ، وقال فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » كذلك لا يغير ما بنا الآن من الضعف والفقر ، وسوء الحال والهوان على الناس ، والتحاسد والتباغض ، والتعادي والتفرق ، وغير ذلك مما نشكو منه ، ولا نقلع عن أسبابه ، حتى نغير ما بأنفسنا ، ونعود الى الهداية التي كان عليها سلفنا ورحم الله الامام ومالك حيث قال « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها » وانما يكون تغيير ما بالاقتصر بالتربية والتعليم . فان المراد من التغيير ما يترتب عليه تغيير العمل . وانما الاعمال آثار العلوم والاخلاق فمتى كان العلم بالحق والباطل وبالصالح والمفاسد والمنافع والمضار صحيحاً ، والاخلاق فاضلة - كانت الاعمال كلها صالحة مؤدية الى رفعة الافراد وكمالهم الديني والمدني ، فلابد لنا من إصلاح طريقة التربية والتهذيب ، وإصلاح طريقة التعليم معا ، ولو كان التعليم الذي جرينا عليه من عدة قرون يخرج لنا رجالا ينهضون بالامة الاسلامية ويخرجونها من حجر الضب الذي نحن فيه لظهرت آثارهم ولما بقينا في هذه المهانة بضع قرون وكأننا مصابون بالفالج أو داء السكتة ، ولكن ماهي التربية التي نرجو بها صلاح أخلاقنا وارتفاع همتنا ، والتعليم الذي ترتقي به عقولنا ونعرف به ما ينبغي لنا ؟

أما تربية الصغار التي عليها المدار ، فهي ليست عندنا في محل البحث والتبيين ، ولا في حيز العمل والتنفيذ ، فأكثر المسلمين يتركون أولادهم سدى يجري كل منهم على ما عليه عشيرته وعشراؤه من هوى أو هدى ، الا أن بعض المتفرنجين في بعض الامصار الكبيرة منا قد فتحوا الملاجئ الافرنجية يلقون اليهن بأفلاذ أكبادهم فيعلمن الذكور والاناث منهم لغاتهن ، وينشئنهم على عادات أقوامهن . وأما تربية الكبار بالوعظ والارشاد فقد وكل عندنا عامتنا الى مشايخ الطرق وأكثرهم من الدجالين الجاهلين يزيدونهم بدعا وفساداً وغروراً وضلالا .

وأما التعليم الديني فقد أشرنا الى عقمه وسوء أساليبه والاختلاف في الحاجة الى اصلاحه والاشتغال بوضع القوانين والانظمة والبرامج له ، فهل هذا هو الاصلاح المطلوب ؟

التعليم صناعة من الصناعات ترتقي بارتقاء العمران كما يقول حكيمنا الاجتماعي ابن خلدون ، وقد جرى أولئك فيه على مقتضى العقل والاختبار بحسب الحاجة التي كانت تظهر لهم وتليق بحالهم ، فكان أول ما جروا عليه طريق الرواية والتحديث والاملاء ، كان أحدهم يحفظ ما يتلقاه أو يكتبه أو يجمع بين الحفظ والكتابة ، ثم جروا على طريق آخر من وجه آخر وهو طريق الاستنباط من المحفوظ والمكتوب وبسط الدلائل والمقارنة والترجيح بينها ، باستقلال الفكر ، واتباع ما يظهر انه الراجح ، ثم وضعت المصنفات في العلوم والفنون المختلفة فكان ما كتبه الاولون مبسوطا سهل العبارة كثير الشواهد والبينات . ثم صار الناس يدرسون مصنفات من قبلهم فيشرحون ما غمض منها ويستدركون على المصنف فيما قصر فيه ، ويبينون غلطه فيما غلط فيه مؤيدين أقوالهم بالدلائل والشواهد ، ثم ضعفت الهمم وونت العزائم فصار الناس يختصرون المصنفات فيذكرون أهم قواعدها ومسائلها بعبارة مختصرة خالية من الدلائل والشواهد والامثلة - الا قليلا - وتبارزوا في الاختصار والايجاز فيه حتى نقل عن بعضهم انه كان يقرأ الشيء الذي كتبه بعد عهد بعيد أو قريب فلا يفهمه ، ثم حدثت عندهم طريقة شرح المختصرات ثم شرح الشرح ووضع الحواشي والتقارير عليها ، وجعل هذه الكتب كلها كتب تدريس تقرأ للطلاب يبدأ الاستاذ منها بقراءة المتن فالشرح فالحاشية فالتقرير فيكون جل شغله في إشغالهم في عبارات أولئك الكاتبين لاجل حل رموز ذلك المتن المختصر وبيان المراد منه وما يرد عليه وعلى تلك العبارات وما يجيب به عنها ولو بالتعسف وتحميل الالفاظ مالا تحمل

هذه اشارة وجيزة الى كيفيات افادة العلم في الزمن الماضي بالتدريس والتصنيف ومنه يعلم انها كانت أطوارا مختلفة أقربها الى الصواب أقدمها ، ولم ينتقل المسلمون من طور منها الى طور دفعة واحدة لانها لم تكن تحصل من قبل ادارة عامة تضع لها القوانين والانظمة والبرامج والجداول وتوزعها على جميع المسلمين كما تفعل وزارات العلوم والمعارف في الدول المرتقية في هذا العصر ، وانما كان الانتقال من طور الى طور يحصل بالتدريج . وقد كان في زمن العباسيين شيء من النظام المعروف المتبع في المدارس الكبرى ولا سيما المدرسة النظامية ببغداد وما كان على طرازها فيها وفي غيرها ، ولم يرتق ذلك النظام ويدون ويعم لانه لما وجد كانت جراثيم الضعف والمرض الاجتماعي قد بدأ يظهر تأثيرها في جسم الامة ولذلك قام بعض العلماء الاعلام يبحثون في طريقة التعليم وأساليبه ويضعون القواعد له كما فعل أبو حامد الغزالي في كتاب

العلم من احياء علوم الدين ، وتلميذه أبو بكر العربي المغربي ، ثم ابن خلدون ، ثم الشيخ زكريا الانصاري ، وكان ينبغي ان يقرأ فن التعليم بالتصنيف وتحقق مسائله وتحمل معاهد العلم الكبرى على العمل حتى بما يظهر انه الصواب ، ولو بأمر الحكومة ، الى ان يظهر للعلماء شيء من الخطأ فيه فيرجع عنه كما تنسخ نظارات المعارف في دول الحضارة الآن كثيراً من مواد قوانين التعليم ونظام المدارس اذا ظهر لها انه ضار وان غيره أنفع منه وانما لم يفعلوا لان الامة كانت في طور التدلي والانحطاط ، فكيف تهدي الى أوثق أسباب النهوض والارتقاء ؟

وقد بينت هذه المسألة في المقدمة التي وضعتها لكتاب أسرار البلاغة تصنيف امام فن البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني عند طبعه ، وهذا الكتاب في البيان وصنوه كتاب دلائل الاعجاز في المعاني هما خير مثل لما أشرنا اليه من تدلي التصنيف والتعليم فانهما على كونهما أول الكتب التي صارت بها البلاغة فنا مدونا ذا قواعد وقوانين كلية مقسمة الى أبواب وفصول لا يزال الان أفضل وأنفع مما صنف بعدهما وأستمد منهما ولا سيما الكتب المشهورة المتقنة الصنعة كالمفتاح للسكاكي والمطول والمختصر للتفتازاني - اللذين فتن بدقة صنعتهما جميع علماء المسلمين في بلاد العرب والعجم فجعلوهما من كتب التدريس فكان ذلك سبب موت البلاغة العربية في جميع المدارس الاسلامية ، ولذلك اجتهدنا مع شيخنا الاستاذ الامام في البحث عن نسخ أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز في الحجاز والعراق والآستانة وتصحيح ما ظفرنا به وطبعه ، وقد قرأهما الاستاذ الامام في الجامع الازهر فاستفاد منهما كثير من الطلاب وانتعشت البلاغة العربية العملية في الازهر بل انبثت فيها نسمة الحياة بعد أن طال عليها زمن الموت وقررتهما نظارة المعارف المصرية في مدرسة دار العلوم وهي المدرسة التي يتخرج فيها مدرسو اللغة العربية ، وقررتهما ادارة معارف السودان أيضا في مدرسة غوردون الكلية ، ولو شئت أن أذكر الامثلة على تدليسنا في التدريس والتصنيف في كل علم من العلوم الاسلامية لضاق وقت هذا الاجتماع عنه وفاتكم ما تنتظرون سماعه من كثير من العلماء الاعلام

ان ما أشرت اليه من التدلي في التصنيف والتعليم كان عاما شاملا لجميع البلاد الاسلامية ولا غرو فالمسلمون أمة واحدة وقد كان ارتقاؤها في العلوم والاعمال من آثار هداية دينها . وتدليها فيهما من الانحراف عن صراط دينها ولكن البلاد الاعجمية أصيبت بمرض آخر في تعليم الدين ووسائله وهو ان علماءها صاروا يدرسون تلك العربية التي لا تصلح لتعليم العرب أنفسهم على الوجه المؤدي الى الغاية من اللغة

والدين بالترجمة للطلاب فكان هذا مصابا على مصاب . اذ صار طالب العلم يشتري بالعشرات من سني عمره قواعد عامة للغة لا يعرفها كما تعرف اللغات فيعسر عليه أن يطبقها على جزئياتها وأن يصل بها الى الغاية المقصودة من اللغة وهي أن تكون ملكة له يقدر على التكلم والكتابة بها بغير تكلف ويفهم الكلام البليغ منها بغير تردد ويتأثر به من غير تصنع فان كان مقنعاً اقتنع وان كان وعظاً اتعظ وان كان سارا سر وان كان محزنا حزن

كان علماء العجم في القرون الاسلامية الاولى يشاركون اخوانهم المقيمين في بلادهم كالشام ومصر وأفريقية والاندلس في التأليف والتصنيف والانشاء والشعر ويضربون معهم بكل سهم فكانوا أحسن مظهر لوحدة الاسلام وانما كان ذلك لانهم كانوا يحذقون اللغة العربية بالعمل حتى تصير ملكة راسخة فيهم كرسوخها في أبنائها ولما تضاءلت الهمم وضعفت العزائم وفشت بدعة تعليم العربية والدين ذهبت تلك المزية وضعفت العلوم الدينية واللغوية وتراخت رابطة الوحدة الاسلامية وما عاد ينبغ في بلاد الاعاجم في تحصيل تلك الكتب التي أشرنا اليها على قلة النباهة فيها الا أفراد يعدون على الاناميل ، بل يمكنني أن أقول انهم من القلة بحيث لم يصل اليناعن نثرهم ونظمهم شيء خال من لوثة العجمة وقد كان السيد جمال الدين الافغاني الحكيم الكبير والمصلح العظيم هو الذي نفخ روح الاصلاح اللغوي والعلمي في مصر وحمل تلاميذه من طلاب الازهر على الكتابة والخطابة وأرشدهم الى طرقهما . وكان هو كاتبا بليغا ، وخطيبا مفوها ، حتى كان يخطب بالعربية عدة ساعات بلا تلعثم ولكنه مع هذا كله ظل الى آخر عمره يعرف الاعلام التي لا يجوز تعريفها وتظهر العجمة في لهجته وبعض ألفاظه فلم يصقل لسانه بفصاحتها كما كان الزمخشري وأمثاله ممن قال فيهم ابن خلدون انهم ليسوا أعاجم الا في النسب . وسبب ذلك انه تعلم العربية تعلما فنيا في الكتب ثم اهتدى في الكبر بثاقب عقله ونور بصيرته الى الطريقة التي بها تطبع ملكة اللغة في النفس واللسان فهدى تلاميذه من العرب بمصر اليها فكانوا أسلس منه عبارة وأنصع ديباجة وأسلم من تكلف الصنعة (للخطبة بقية)